القطّ الأسود

يُعدّ بنفسه فنجان قهوته، يحمله إلى الشرفة ويخرج، ليشربه وحده، والضجر يأكله.

ما إن يستوي على المقعد، حتى يأتيه صوت جارته أمينة منادية زوجته وهي تسأل:

- هل جئتِ يا إلهام؟

وقبل أن يجيبها، يأتيه صوتها ثانية، وهي تصرخ:

- هاتِ قهوتك، وتعالي، أطعمي معي القطط، قطك الأسود ينتظرك.

لا كنتِ أنت، ولا كان قطك الأسود، أنت سبب الشؤم والنحس، منذ أن تعرفتْ إليك زوجتي وإلى قطك الأسود لم أهنأ في عيشي.

ويطل عليها من شرفة المنزل، وهو يهتف:

- إلهام لم تصل بعد، أنا وحدي أشرب القهوة.

- وهل تناولتَ غداءك؟ أستاذ أديب.

- لا، ما زلت أنتظرها، أنا أشغل نفسي بالقهوة.

- كم الساعة الآن؟

obeikandl.com

ـ الخامسة.

ـ أوه، تأخرت كثيراً، ليس من عادتها، المفروض أن تصل في الرابعة، لا شك أن السبب هو ذلك السائق الأرعن، لعله تأخر عنها وعن زميلاتها.

يعود إلى كرسيه، يرشف قهوته.

أنت الرعناء، والسائق أسوأ منك، والأسوأ منكم جميعاً قططك، ولا سيما قطك الأسود، هو ليس قط زوجتي، هو قطك أنت، كرهتُ كل شيء، كرهتُ الحدائق والزهور والقطط، كم كنت أُسَرُّ بالإطلال على حديقتك، وأستمتع بالزهور، ما كنت أستاء من شعرك المنكوش، وثوبك الفضفاض المتهدل، وعرجك الهادئ، ما كنت أستاء من صوتك العالي وأنت تصرخين منادية القطط، ترمين إليها بطعامها، ولكن لا أعرف كيف اكتشفت بعد ذلك هذا القبح كلَّه، هذا السوء كله، تمنيت لو أنني اشتريت الدور الرابع في البناء لا الدور الأول، حتى لا أكون قريباً منك، كم أتمنى لو كان في البناء عشرة أدوار، بل خمسة عشر دوراً، لانتقلت فوراً إلى الدور الخامس عشر، حتى لا أراك، ولا أسمع صوت قططك.

يحتسي قهوته دفعة واحدة، ويرجع إلى المطبخ.

obeikandl.com

ليس خطأك أنت، إنما هو خطأ زوجتي، لا أعرف ماذا يسليها في عجوز شمطاء، كما يقال، هي ليست عجوزاً، ولكنها من غير شك في الخمسين، وبدانتها المفرطة تجعلها تبدو في الستين، لا شك أن زوجها مات قهراً قبل أن يحين أوان موته، لا أعرف ما الذي جعل زوجتي تنجذب إليها، لو كانت هي أمي لما أحبتها ولما تعاملت معها بهذا الودّ واللطف، ما إن تزورنا أمي في الشهر مرة لساعة أو ساعتين حتى تضجر منها، أكثر ما يغيظني عندما تقول لزوجتي: «لقد منحني الله هذه القطط، هي أحب إلى قلبي من الأولاد، لقد حُرِمْتُ من الولد، ولكن الله منحني هذه القطط، فور سماعها ندائي تسرع إليَّ، أنا بالنسبة إليها الأم، وهي بالنسبة إليَّ الأولاد، ولاسيما ذلك القط الأسود، يا إلهي كم هو ذكي»، عندما أسمع جارتي أمينة تقول مثل هذا الكلام أحس أني أكاد أنفجر، ولا بد في كل يوم من أن تزورنا، أو تنزل إليها زوجتي، ولو لساعة كأنها أمها، ولابد في يوم العطلة من أن تدعوها إلى تناول الغداء معنا على المائدة، أنا لا أكرهها، أنا أشفق عليها، هي لم ترزق بولد، ولكن أحس فيها السماجة، أكثر الأيام شؤماً عندما رأيت زوجتي تحمل القط الأسود، تضمه إلى صدرها، تدغدغ نقرته، تقبّل رأسه، كدتُ أقذف به من الشرفة عندما اقترحت أن نستبقيه عندنا في الشقة، قلت لها: «وهل سينام

بيننا في الفراش؟»، لم تجب، أدهشها غضبي المفاجئ، قلت لها: «أعيديه إلى جارتك أمينة خانم، لينام في فراشها، وإلا قطعت عنقه في الحال».

يغادر الشقة، يهبط على الدرج.

سأنتظرها على الرصيف، لأعرف سبب تأخرها؟ هل صدمت السيارة طفلاً فأشفقت عليه المعلمات، ولاسيما زوجتي، وأبت إلا أن تحمله إلى المستشفى؟ هل أوقف الشرطة السيارة وسيق السائق إلى السجن؟ يا إلهي كم تحبّ الأطفال، فليكن، لنعِشْ من غير أطفال، هذه جارتنا أمينة تعيش من غير أطفال، ما المشكلة؟ هي هانئة في حياتها وسعيدة، وهي طيبة وبريئة، وليست معقدة، أنا لا أكرهها، ولكن لا أعرف لماذا أضجر منها في بعض الأحيان.

على الرصيف الآخر، المقابل للبناء، يقف، ينتظر، يروح ويجيء بين الناس، وهو ينظر في ساعة يده.

الخامسة والربع، هل يعقل أن تتأخر ساعة؟ آلاف السيارات تمر، تروح وتجيء، من غير ملل ولا فتور، من عادة السائق أن يوصلها إلى البيت قبل زميلاتها جميعاً، بيتنا هو أقرب البيوت إلى المدرسة، هل يعقل أن يوصل زميلاتها قبلها؟ ألا يوجد سائق آخر في العالم يمكن التعاقد معه؟ بدين كأنه برميل، يداه قصيرتان، لا أعرف

كيف تحيطان بالمقود، وأنفه مثل بطيخة كبيرة، شعره أسود مثل قنفذ، وبطنه يدخل في المقود، أو لعل المقود هو الذي يدخل في بطنه، هل أوصَلَ المعلمات كلهن إلى بيوتهن ثم ساق بزوجتي إلى خارج المدينة، ليختطفها، زوجتي ليست الأجمل بين زميلاتها، بل هي الأجمل، لِمَ لا؟ هي شقراء، مرسلة الشعر، حركة يدها وهي ترد شعرها بيدها إلى وراء وحدها تساوي نساء العالم كله، مثل وشاح فينوس، هو الذي يزيدها جمالاً، رشاقتها وحدها تغريني، ولكن كم آلمتني عندما دافعت عن بطنه الممتد إلى أمام مثل شرفة واسعة، عبثتُ أنا عليه بطنه، فأجابت: «جدي رحمه الله يقول: الرجل من غير كرش مثل ملك بلا عرش»، قالتها مازحة وهي تضحك، ولكنني غضبت وصحت بها: «تزوَّجيه إذا شئت»، غضبت هي الأخرى، صرخت، بكت، اختبأت في صدري ثم صاحت: «أحبك، أحبك»، هل يعقل أن تفر معه، ليتني أقتله وأقتل معه القط الأسود، مرة فكرت في شراء علبة سردين فاسدة ورميها من الشرفة إلى قطط جارتي أمينة، بل تسميمها ورميها إلى قطها الأسود وحده.

ويناديه جاره بائع الفاكهة:

ـ تفضل أستاذ أديب، عندي اليوم تفاح أحمر طازج، والأسعار مناسبة جداً.

obeikandi.com

يلتفت إليه، مشمئزاً، يشير بيده كأنه يبعد ذبابة عن وجهه، يردّ:

ـ أشكرك.

سأبقى هنا على الرصيف أنتظر، أمام المحلات، ليتني كنت بائع فاكهة مثلك، أو بائع ثياب جاهزة، أو بائع حلويات، بائع الحلويات لا يرجع إلى بيته حتى الثانية عشرة ليلاً، أما أنا فمحكوم علي أن أنصرف من المدرسة قبل زوجتي، وأبقى في البيت وحدي من غير غداء أنتظرها، قلت لها مرات عديدة: «انتقلي إلى مدرسة أخرى، ليكون دوامك في الصباح مثل دوامي»، ولكنها أبت، قالت: «لا، من الأفضل أن يكون دوامي خلافَ دوامك، أنت تداوم في الصباح في الفوج الأول، وأنا أدوام بعد الظهيرة في الفوج الثاني، هذا لصالحي وصالحك، من الأفضل أن يكون واحد منا في البيت»، قلتُ ساخراً: «اطمئني لن يسرق البيت أحد»، أجابت: «غداً نُرزق بولد، ولابد من بقاء واحد منا في المنزل يرعاه»، خمس سنوات مرت ولم نرزق بولد، كدنا نرزق بخمس قطط مثل جارتنا أمينة خانم، وما يزال دوامي خلاف دوامها، ما الفائدة؟

هذه أخيراً سيارتها.

ويكاد يعبر الشارع، ولكنه يتراجع، السائق ينزل، يتدحرج مثل برميل أسود، يفتح لها الباب، تنزل بهدوء، شعرها الأشقر منسدل على كتفيها، تأبى إلا أن ترده إلى وراء بيدها، كم هي ساحرة؟ تحمل كيساً ورقياً صغيراً، السائق يفتح باب السيارة الذي إلى جواره، يحمل بهدوء صندوقاً ملفوفاً بورق ملوّن، وهي واقفة على الرصيف تنتظره، مرة أخرى ترد شعرها المنسدل على كتفها، يتطاير رقيقاً كالحرير، علائم البهجة والسرور بادية على وجهها، ماذا تحمل في الصندوق؟ هل هو هدية لي؟ ما المناسبة؟ ليس عيد ميلادها ولا عيد ميلادي؟ ولا عيد زواجنا؟ هل هو هدية من تلميذاتها؟ لسنا في نهاية العام الدراسي؟ ولسنا في عيد المعلم؟ ماذا اشترت للبيت؟ هل هو مصباح مكتب؟ هل هو دمية صغيرة على شكل قط؟ لا يبدو كذلك.

يعبران الشارع معاً، السائق من غير شك سيحمل الصندوق إلى الشقة، لا بأس، هو يخدمها ويخدم كل زميلاتها، أعرفه متواضعاً، ومهذباً، ولكن لا أعرف لماذا أكرهه؟ حقيقة أود قتله، أتمنى موته، هو لطيف ودود، مثل قطها الأسود، مثل قط جارتها الأسود، يتمسَّح بها، كم أكرهه وهو يتمسح بها، كم أشمئز وهي تداعب عنقه، في نقرته وراء رأسه، أو أسفل عنقه، والخبيث يستسلم لأناملها، ينام، يغمض عينيه، وأنا أختنق.

تأخّر هو أيضاً، أكلَّ هذا الوقت سيمضيه في صعود الدرج إلى الدور الأول؟ جِمْلُه ليس بالثقيل، ولكنه هو ثقيل، كالفيل، ليته يتعثر على الدرج، ويسقط، هل تعثر وسقط ودقت عنقه؟، هناك درجة مكسورة، ليته لا يراها، فيسقط، لكن زوجتي سوف تنبِّهه من غير شك، أنا أعرف هي تحبه، أقصد هي تقدِّر لطفه، هو حقيقة لطيف، أنا لا أحب الرجل اللطيف، كم مرة تأخرتْ زوجتي، فصعدَ إلينا الدرج وقرع الباب، كان يقرعه بأطراف أنامله، ولا يضغط على الجرس، صوته أكرهه، صوته ناعم، رفيع، مثل قطة، تباً له ولكل القطط.

والآن: ماذا أفعل، هاهو ذا يخرج من البناء، هو مكتئب قليلاً، لا أعرف لماذا؟ يضع يده على خده كأنه يتألم أو يتحسَّر، يميل برأسه ذات اليمين وذات الشمال، هل حاول تقبيلها فصفعته على خده؟

لن أرجع إلى البيت سأذهب إلى المطعم، أربع ساعات وأنا أنتظر، خمس ساعات، لم أتناول طعام الغداء، وأنا أنتظرها، ثم تتأخر مع هذا السائق البرميل؟ ماذا جلبت معها؟ أي هدية وأي مناسبة؟ وهل بيننا نحن الأزواج بعد خمس سنوات من الملل والقرف هدايا؟ أحبها وتحبني، ولكنني مللت، لا جديد، سأتناول الطعام في المطعم، سأذهب إلى زيارة أمي أو أخي.

هاهو ذا ينطلق بسيارته، يلتفت إلى البناء، ينظر إليه، كأنه يودع، يلقي عليه نظرته الأخيرة، أرجو أن تكون نظرته الأخيرة، فليذهب إلى الجحيم.

أنا سأرجع إلى البيت، هو بيتي، وهي زوجتي، ليس من مشكلة، ولكن أين كنتُ؟ إذا سألتني أين كنتَ ماذا سأقول؟ هي مجنونة، أعرفها، لا تصدق، تغار من خيالها، وأنا ألا يحق لي أن أغار من القط؟ أو من الجارة؟ أو من السائق؟ الرجل من غير كرش كالملك من غير عرش؟ هكذا قالت؟ كأنها تريد إغاظتي، أنا ناحل، أو بالأحرى هضيم، ولكنني لست ضعيفاً، هل تريد إغاظتي؟

ويدخل محلاً لبيع الحلوى، ويخرج بصندوق حلوى، ويعدو عابراً الشارع، نحو درج البناء.

ولكن ما المناسبة؟ لماذا هذه الحلوى؟ لا لشيء، ألا يمكن تناول الحلوى من غير مناسبة، هي بمناسبة تأخرك أيتها العزيزة، هي بمناسبة عيد ميلاد قطك الأسود، بالأحرى قط جارتك، لنفترض أن اليوم عيد ميلاده؟ هل من مانع؟ هو ليس لك، هو لجارتك، هل أقرع الباب وأناوله للجارة؟ هل أنقر على الباب مثل سائقك اللطيف؟ مثل ذلك القنفذ الأسود؟ هل أخمش خشب الباب بأظافري مثل قطك الأسود؟

ويضع يده على زر الجرس، ويضغط، ويضغط.

ويُفتح الباب، ويطالع وجه أمينة المجعَّد ويدها على فمها، وهي تطلق زغرودة طويلة، كأنها جرس إنذار.

يدهش، يذهل، هل قرع الباب على جارته؟

ومن الردهة تطل زوجته وهي تحمل إلى صدرها القط الأسود، تمسح رأسه، والدموع تطفر من عينيها، وتقول والغصة تطغى على صوتها:

ـ بارك لي، بارك لنا.

وتتكلم أمينة:

ـ تعال اقسم بنفسك قالب الكاتو.

بصوت هادئ يتكلم:

ـ ما المناسبة؟

وتتكلم إلهام:

ـ بعد أن تقسم قالب الكاتو تعرف.

وتتكلم أمينة والسرور يغلبها:

ـ بل بعد أن يفتح بنفسه علبة الطعام الخاص الذي اشترته إلهام لقطها الأسود.

يضحك، يتكلم ساخراً، ببرود مصطنع:

obeikandi.com

ـ ولماذا علبة الطعام الخاصة؟ لو كان قطة، لا قطاً، لقلت هي بمناسبة حملها، لا بأس فلنقل إن زوجته الشقراء قد حملت.

وتزغرد أمينة، زغرودة قصيرة، ثم تتكلم:

ـ بل زوجتك الشقراء هي التي حملت.

وتمد إليه يدها بورقة، تضعها تحت عينيه، وهي تقول:

ـ انظر، هذه هي نتيجة التحليل، زوجتك حامل.

يصمت برهة، يلتفت نحو الباب، كأنه يهم بالخروج، وهو يقول:

ـ سأنادي سائقك البدين صاحب الكرش والعرش ليوصلنا إلى المطعم، سنتناول الغداء مع أمينة خانم خارج البيت.

وتتكلم زوجته إلهام بعصبية وسرعة:

ـ السائق صرفناه، اليوم آخر الشهر، أعطيناه أجرته، وصرفناه، ليس فيه أي خير، أي خدمة ولو صغيرة، لا بد أن يأخذ أجرها مضاعفاً، أوصلني اليوم إلى مخبر التحليل، وانتظر قليلاً حتى اشتريت قالب الكاتو، فأخذ مني أجرة الانتظار، وعندما أعطيته عشرين ليرة مقابل حمله القالب إلى الدور الأول، قال: «هذا قليل»، وبَّخته، صدِّقني وبَّخته،

obeikandl.com

تمنيت لو صفعته على وجهه، وفي كل يوم لا بد أن يتأخر، وسيارته ونحن في الطريق كل يوم تتعطل، اتفقنا على التعاقد مع سائق آخر.

وتتنبه إلى الحلوى التي يحملها بين يديه، فتسأله بلهجة مختلفة هادئة:

ـ وما مناسبة هذه الحلوى؟

ينظر في الحلوى بين يديه، يتردد، يتلعثم:

ـ هذه حلوى، نعم، هي حلوى بمناسبة قط جارتي أمينة، أقصد بمناسبة حبي لجارتي أمينة، أقصد لقطها الأسود، أو..أو هي بمناسبة صرفك للسائق البرميل الأسود.

obeikandl.com